دور الحجيج في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في مملكة كانم برنو

د.ابراهيم عمر الياس [1]

الملخص: تعد مملكة كانم برنو من أهم الممالك التاريخية التي عاشت وبادت مع السنين في بلاد السودان الأوسط، وأن حدودها من الشرق تنتهي إلى الحدود المصرية في منطقة عرفت – بالقوز – وفي غربها ليس بينها وبين مالي دولة. ووجود ولايات زندر – دمغرم، أكبر شاهد على هذا.

وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد في عهد السلطان "دونما" بلغت المملكة أوج اتساعها وازدهارها وأقامت المملكة علاقات طيبة وودية مع الممالك الإسلامية المحيطة بها، وحينها كثر إقبال الناس على التعليم الذي ساهم في نجاحه وفود علماء وقراء وفقهاء وصوفية ذوو اهتمام، ولما تزايد عدد الطلاب الحجاج من إقليم كانم أنشأ السلطان في الفسطاط مدرسة ملحقة بنزل فسيح لإيواء الوافدين من بلاد كانم لطلب العلم أو لأداء فريضة الحج، عرفت هذه المدرسة بمدرسة ابن رشيق.

أن لانتشار الثقافة العربية وازدهارها في كانم برنو عوامل وأسباباً كثيرة، حيث لعب التجار من القراء والدعاة والحجاج وغيرهم دورا في نقل اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى المملكة.

مقدمة: الحج رحلة مباركة، وسياحة روحية، كما إن للحج ثمارَه اليانعة، وفوائده المتعددة، وبركاته المتنوعة، ودروسه المفيدة، وأسراره البديعة.

فالورقة تتحدث حول الدور الذي قدمه الحجيج في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في مملكة كانم برنو التي تعتبر البوابة الأكبر لدخول الإسلام في نيجيريا. وتعالج المحاور الآتية: التعريف ببلاد كانم برنو .

وصول الإسلام إليها.

الثقافة العربية والإسلامية فيها.

دور الحجيج في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

بلاد كانم برنو

يقول الشيخ إبراهيم صالح الحسيني: إن الفترة من أواخر القرن الرابع الهجري حتى الخامس الهجري شهدت تحولا عظيما في حركة المد الإسلامي، واندفاع الدعوة والدعاة إلى داخل أعماق القارة الإفريقية، فكما شهد الغرب والشرق الإفريقي حيث يقع إقليم كانم شرقي بحيرة تشاد وإقليم برنو إلى الغرب من البحيرة، فبعد استيطان شعب الزغاوة لإقليم كانم، كما أشار إلى ذلك اليعقوبي وصل إلى تلك المنطقة شعب عربي ينتسب إلى عائلة يمنية عريقة هي عائلة سيف بن ذي يزن، بسط هذا الشعب نفوذه على جماعات البدو الرُحّل المستوطنين، كما بسط هذا الشعب نفوذه بقيادة السلطان دوغو بريمي على شعوب تلك المنطقة المعروفة بالكانوري أو الكانمبو وعلى شعوب الصاو أو الساو – القاطنة في الضفة الغربية

---

[1] – قسم الدراسات العربية والإسلامية – جامعة ميدغري

للبحيرة وروافد الأنهر وتلال أرض البلقاء حتى سلسلة الجبال والهضاب إلى الجنوب من موقع برنو الحالية.[٢]

تقع بلاد "كانم" شرقي شمال بحيرة "تشاد" وتبلغ مساحتها ٢٧٠٠٠ كيلو مترا مربعا، تضم أكثر من ١٥٠٠٠٠ نسمة، ويسكنها عرب من "أولاد سليمان" و "الكانمبو" وبعض القبائل الأخرى، وهي واقعة ضمن حدود جمهورية "تشاد" وبعض أجزائها أصبح تابعا لجمهورية "النيجر" المجاورة، ففي الفترة ما بين عامي (٧٠٠-٧٥٠م) هاجر إليها الزغاوة، وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية من شمال وشرق إفريقيا، كما تقول المصادر العلمية، وانتشروا في مستهل هذه الفترة في مساحة رحبة تمتد من بلاد "دار فور" حتى بحيرة "تشاد" حيث مملكة "كانم" التي أسسها "بنو سيف" بن ذي يزن.[٣]

وفي النصف الأول من القرن السابع الهجري والثالث عشر للميلاد بلغت إمبراطورية كانم الإسلامية أوج اتساعها وازدهارها في عهد السلطان ماي دونما دابلامي، الذي بسط نفوذه إلى الشمال حتى فزان، وبذلك تم لكانم تأمين طرق القوافل إلى الشمال، وفي الوقت نفسه أقامت الإمبراطورية الإسلامية علاقات طيبة وودية مع الممالك الإسلامية المحيطة بالمنطقة، وهناك صلات ودية قوية وعلاقات طيبة للغاية تربطها بدولة الحفصيين بتونس منذ قيامها في مطلع القرن الثالث عشر للميلاد، وفي عهد هذا السلطان توسعت كانم في علاقاتها مع دول الشرق العربي والشمال الإفريقي. وكثر إقبال الناس على التعليم الذي ساهم في نجاحه وفود علماء وقراء وفقهاء وصوفية ذوواهتمام بالغ بنشر دعوة الإسلام والثقافة العربية الإسلامية من المغرب وتونس، واهتم أيضا السلطان بإيفاد المبعوثين إلى الأزهر الشريف. ولما تزايد عدد الطلاب والحجاج من إقليم كانم أنشأ السلطان في الفسطاط مدرسة ملحقة بنزل فسيح لإيواء الوافدين من بلاد كانم لطلب العلم أو أداء فريضة الحج. عرفت هذه المدرسة بمدرسة ابن رشيق وذلك فيما بين عام ١٢٤٢-١٢٥٢م.[٤]

هذا، واسم "برنو" أطلق أخيرا على البلاد الواقعة إلى الجنوب من بلاد "الكومادوجيوبيه" بين "غيدم" غربا و"ديكوه" شرقا، ولم تتجاوز حدودها الجنوبية منطقة "غجبا" ، وكان أول من أطلق على هذه البلاد هذا الاسم هم العرب، وأخيرا أصبحت "برنو" مستوطنا لكثير من الأمم والأجناس المختلفة الديانات والثقافات.[٥]

وفي أواخر القرن الثالث عشر بدأ "الكانوريون" و "التبو" يعبرون نهر "يوبيه" بدافع نشر الإسلام، وليجاهدوا سكان بلاد "برنو" الوثنيين. ولقد وقعت خلال القرن الرابع عشر عدة حروب بين قبائل "الصاو" وملوك "الكانم" بني سيف، واستطاع شعب "الصاو" أن يقاوم ملوك "الكانم" لمدة طويلة، كما استطاعوا قتل أربعة من ملوك "كانم": تباعا، وكان الملك "إدريس ننغالمي" هو ملك كانم في القرن الرابع

---

[٢] الحسيني، إبراهيم صالح (الشيخ) الأبعاد التاريخية للإسلام في إفريقيا والدعوة الإسلامية، الطرح الجديد، محاضرة ألقيت في مؤتمر الإسلام الذي انعقد في أبوجا من ٢٤-٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ ص ٢٧-٢٨ .

[٣] الحسيني، إبراهيمصالح،الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو، ١٩٧٩ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر القاهرة ص ٧٤ (بتصرف).

[٤] الحسيني، ابراهيم صالح (الشيخ) الأبعاد التاريخية مرجع سبق ذكره، ص ٢٨-٢٩ .

[٥] الحسيني، إبراهيمصالح، مرجع سبق ذكره ١٩٧٩ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر القاهرة ا ص ٨٨ .

عشر. وفي عهده زار ابن بطوطة–الرحالة العربي المشهور–هذه البلاد قادما من "مالي" التي تعرف في ذاك الوقت ببلاد التكرور.[٦]

جاء في كتاب: (تطور الثقافة العربية والإسلامية في مدينة يرو–ميدغري١٩٠٧–١٩٥٠م)، نقلا من بفه ما نصه: إن إمبراطورية برنو من أوسع إمبراطوريات العالم القديم، التي عمرها الله، وجعل لها شهرة واسعة، وصيتا عاليا حتى طفق بعض العرب يصفها قائلا: (إن لمملكة برنو شأنا عظيما، وذلك ما جعلها ترسم في خرائط أوربا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت تقع في وسط السودان، وتحدها شمالا الصحراء، وغربا بلاد الهوسا، وفي الجنوب الشرقي باجرمي).[٧]

ينقسم تاريخ المملكة إلى عصرين[٨]: (العصر الكانمي: ويمتد من قيام الإمبراطورية في إقليم كانم إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي.. والعصر البرنوي: ويبدأ من أواخر القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية إمبراطورية في غمرة الاستعمار الأوروبي الحديث)

وصول الإسلام إلى كانم برنو: إن الإسلام وصل إلى أراضي كانم في وقت مبكر بوصوله إلى فزان في القرن السابع الميلادي، وذلك أن المسلمين بقيادة عقبة بن نافع قد استولوا على فزان وودان وتقدموا نحو غربي طرابلس، وفتحوا واحة كوار التي لها صلة مباشرة مع كانم. وعلى الرغم من انتشار الإسلام في الحدود الشمالية لمملكة برنو، وتسربه إليها في وقت مبكر من انتشاره هناك– يسجل للملكة رسميا أنها اعتنقت الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي. ويرجع ذلك إلى أصل اعتناق الملك حمي جلمي للإسلام، وما قام به من أعمال لصالح الدعوة الإسلامية مع أستاذه الداعية الكبير محمد ماني في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي مع وجود من سبقه إلى الإسلام من ملوك الأسرة، كما هو واضح في المرسوم الملكي المصطلح عليه محليا (بالمحرم) الذي أصدره الملك حمي جلمي نفسه والذي يعتبر وثيقة مهمة ذات مغزى تاريخي وإعلامي لاعتناق المملكة الدين الإسلامي، واعترافها به اعترافا رسميا مما جعل المؤرخين يرجعون إليها كمصدر للحديث عن الإسلام في كانم برنو.[٩]

الثقافة العربية الإسلامية في كانم برنو: إن لانتشار الثقافة العربية وازدهارها في كانم برنو– عوامل وأسباباً طبيعية ساعدت على إيجاد أسس وقواعد متينة لازدهار تلك الثقافة، فالإمبراطورية بموقعها الجغرافي قد تسربت إليها التأثيرات الإسلامية منذ وقت مبكر، وقد لعب الحجاج والتجار من القراء والدعاة وغيرهم دورا في نقل الثقافة الإسلامية قبل أن تعتمد الإمبراطورية على المؤسسات الرسمية في الداخل والخارج، ففي الفترة الأولى التي عرفت بالعصر الكانمي والتي تمتد إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، أنها تعتمد على المؤسسات الثقافية الخارجية أكثر مما كانت تعتمد على الداخلية. وهذا بالطبع يرجع إلى أسباب حداثة انفتاحها رسميا على العالم الإسلامي وخاصة مصر التي تعتبر قاعدة

---

[٦] المرجع نفسه ص ٨٧(بتصرف) .

[٧] محمد الثالث بفه، الشعر الصوفي للشيخ أحمد أبى الفتح اليرواوي من عام ١٩٤٢–١٩٩٢م، بحث تكميلي لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية بجامعة ميدغري ١٩٩٥ ،ص (ي) .

[٨] طرخان، إبراهيم علي(الدكتور) امبراطورية البرنوالإسلامية، المكتبة العربية القاهرة ١٩٧٥ ص ٤٣.

[٩]الشريف، كياريإبراهيم،البردة الجيمية في مدح خير البرية للإمام الخطيب الشيخ يوسف بن عيد القادر القرقري، بحث قدم لقسم اللغة العربية، كلية الأداب والدراسات الإسلامية جامعة بايروكنو للحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية والآداب ٢٠٠١ ص ١٠ .

المسلمين في فتوحاتهم آنذاك، وتحتضن مراكز علمية وثقافية، ويرجع أيضا إلى أسباب حدوث القلاقل والاضطرابات الداخلية التي كانت سائدة، وأدت في الأخير إلى الانتقال من القسم الشرقي إلى القسم الغربي حيث كانت برنو، فقد أسس السلطان دونمة ديبا ليمي (١٢٢١-١٢٥٩م) بالقاهرة مدرسة ابن رشيق من القرن الثالث عشر الميلادي لإيواء الطلبة من كانم برنو، كما أشار إلى ذلك القلقشندي نقلا من كتاب مسالك الأمصار، كما أن اعتماد المملكة على الأزهر الشريف وشيوخه كان منذ حوالي تلك الفترة من التاريخ أو بعدها بقليل، فقد أنشأ الرواق البرناوي فيه للوافدين من المملكة.[١٠]

أما الفترة الثانية التي عرفت بالعصر البرنوي، قد كثرت فيها مراكز العلم ومنابع الثقافة العربية الإسلامية في هذه الفترة، بعد أن استتب الأمن الداخلي، وقويت الصلات القديمة بين المملكة ورجال العلم والمعرفة في بلاد المغرب وغيرها. واشتهرت فيها ثلاثة مراكز تعليمية يشد إليها الرحال: [١١]

الأول: مدينة غسرغمو، قاعدة الملك وعاصمة المملكة بعد الانتقال من القسم الشرقي في كانم، بناها السلطان علي غاجي حوالي عام ١٤٨٨م، وقد بلغت أوجها من الرقي والتقدم، وقصدها طلاب العلم والمعرفة من جميع مناطق السودان الغربي، واكتسبت شهرة المراكز العلمية بالمغرب ومصر خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين بدعم من الحكومة المركزية للملكة. واشتهر فيها من العلماء الشيخ محمد الخطيب المعروف ب (حجرمه) صاحب كتاب شرب الزلال، والشيخ طاهر فيرمه صاحب التواليف العديدة، والشيخ أحمد المقري، ومن المتأخرين الشيخ عبد القادر القرقري وغيرهم.

الثاني: مدينة مشينا وتقع غرب برنو، وقد اشتهرت فيها مدرسة الشيخ أحمد فاطمي، الذي أخذ عنه الشيخ مَسَفَرْمَهْ عمر بن عثمان إمام السلطان علي غاجي وتصدر منه عالما، وكان هذا المركز من أهم المراكز الثقافية التي خرجت الدعاة والقراء والمثقفين في هذه المنطقة، وكانت لها صلة بمقارئ الأندلس والمغرب ومدارسها.

الثالث: منطقة كلنبرد، المحرفة من كلمة (كل فرد) وتقع في الصحراء على مسافة خمسين ميلا إلى الشمال الشرقي من مدينة غسرغمو، وتقع الآن داخل حدود دولة النيجر، وفيها مدرسة الشيخ عمر ولد ديده والشيخ حسن الجرمي، ومن علمائها أيضا الشيخ عبد الكريم بن الجامع الذي أسس مؤخرا مملكة وداي، والشيخ عبد الله البرناوي وغيرهم.[١٢]. كان علماء كانم برنو قد عرفوا بنشاطاتهم العلمية والثقافية في مجال اللغة العربية والأدب. بما أن ينابيع الثقافة تنفجر من معاقل العلم ومشاغل المعرفة، فإن الآثار العلمية والثقافية الهائلة التي ورثتها من كوكاو في القرن التاسع عشر من غسرغمو وما جاورها جعلت من تلك المدينة مركزا علميا تشد إليه الرحال وخاصة بعد استقرارالكانمي في تلك المدينة،

---

[١٠] المرجع السابق ص ١١-١٢.

[١١] المرجع السابق ص ١٢-١٤ (بتصرف) .

[١٢] المرجع نفسه ص ص ١٢-١٤ (بتصرف) .

وتأسيس ما يمكن أن يطلق عليه المدرسة الكانمية... الخاصة لنشر العلم والثقافة، والتي يتولى هو نفسه إلقاء الدروس في شتى المجالات ويضم مجلسه كبار العلماء والأئمة.[١٣]

حيث إن هناك علاقات تاريخية قديمة بين المغرب وبلاد كانم برنو تتضح لنا من خلال شخصية ثقافية طريفة يبدو أنها كانت من الثمرات المبكرة لتسرب الثقافة العربية المغربية إلى مملكة كانم برنو، وهذه الشخصية هي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن فارس بن شكلة بن عمرو بن عبد الله السلمي الذكواني من أهل كانم، قدم إلى المعرب قبل الستمائة بقليل، وسبب قدومه إنه قدم ضمن سفارة ، ومن هذه القرائن حال الحدود المغربية المتاخمة لكانم بسبب تحركات قراقش وبني غانية في تلك الجهات، ومنها وصول سفارة في هذا التاريخ من بلاد السودان إلى مراكش، ومنها كثرة زيارات الكانمي إلى ابن حموية سفير صلاح الدين في مراكش الذي يقول في رحلته متحدثا عن الكانمي: وقد تردد إليّ كثيرا وذاكرني وجالسني، ولعل موجب هذا أن الكانمي كان سفيرا كصاحبه وسواء أكان في مهمة رسمية أم جاء قاصدا (كعبة الجود التي حجت لها عرب الشام وغزها والديلم) أي مراكش[١٤].. فلا شك أن شاعرنا إبراهيم الكانمي الذي ولد في كانم قبيل سنة ٥٥٠م كان ممن تخرج في بلاده كانم، وتصدر منها عالما وشاعرا ولكن لم تكتب له الشهرة إلا بعد دخوله بلاد المغرب قبل الستمائة بقليل من الهجرة، وقد دخل بلاد المغرب إما لمهمة رسمية من بلده، وإما جاء قاصدا مدح الخليفة المراكشي فإنه قد قابل الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ومدحه بهذين البيتين المشهورين من شعره:

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكـــن بعدت مهابة عند اقتراب

فلم تكن لكتب التاريخ صلة به لولا دخوله في المغرب... فقد تعرض لذكره ابن حمويه في رحلته، وابن خلكان في وفيات الأعيان وابن شعار في عقود الجمان والصفدي في الوافي بالوفيات وغير هؤلاء. نعتبر أن إبراهيم الكانمي النموذج الفريد من مملكة كانم برنو، والنموذج الفريد من بلاد السودان في مجال الأدب والشعر، فقد نال كل الشهرة والمكانة بين العلماء والأدباء ورجال الدولة في المغرب في فترة وجيزة خلال خمس عشرة سنة فقط من دخوله بلاد المغرب.[١٥]

دور الحجيج في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المملكة

الحج: في اللغة معناه: القصد والاتجاه نحو الشيء،تقول: حج فلان إلى مكان كذا، إذا قصده، وسار لأهميته عنده. أما في شريعة الإسلام فمعناه: قصد بيت الله الحرام لأداء ركن من أركان الإسلام، في وقت مخصوص، بأقوال وأفعال مخصوصة، وبكيفية مخصوصة، تحدث عنها القرآن﴿ ولله على الناس

---

[١٣] يعقوب يونس موسى، المديح والتوسل في الشعر الصوفي(دراسة فنية لنماذج مختارة من علماء برنو في القرن العشرين) بحث تكميلي لنيل الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها مقدم لجامعة ميدغري٢٠١٠ ص ٣١ (بتصرف) .

[١٤] ابن شريفة محمد ،إبراهيمالكانمي: أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المعرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ١٩٩١ ص١٩

[١٥] الشريف،كياري إبراهيم : البردة الجيمية في مدح خير البرية للإمام الخطيب الشيخ يوسف بن عيد القادر القرقري، مرجع سبق ذكره ص ١٥-١٩ (بتصرف)

حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[١٦]، وفصلها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله وقال: (خذوا عني مناسككم) وأجمع العلماء على أن الحج فرض عين، وعلى لزومه على المستطيع لأدائه في العمر مرة واحدة، ومن جحد فريضة أو أنكرها واستهزأ بها، كان كافرا بعيد عن الإسلام وعن المسلمين [١٧]. ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي قام حكام وأهل كانم برنو بأداء فريضة الحج، وقد أتاحت رحلة الحج فرصة لتأسيس علاقات فكرية وثقافية بين كانم برنو وبين شمال افريقية. وكثرت وفود كانم برنو إلى مصر في طريقهم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وقد أسفر عن هذا تأسيس مدرسة في فسطاط مصر، عرفت باسم مدرسة ابن رشيق، لتدريس المذهب المالكي، وتعليم الطلاب الوافدين إلى مصر من برنو وتدريبهم، فضلا عن استخدامها نزلا للوفود أو الحجيج.[١٨]

كثر إقبال الناس على التعليم الذي ساهم في نجاحه وفود علماء وقراء صوفية لهم اهتمام بالغ بنشر دعوة الإسلام والثقافة العربية الإسلامية من المغرب وتونس، واهتم أيضا السلاطين بإيفاد المبعوثين إلى الأزهر الشريف [١٩]

بهذا يعد الحج عاملا من عوامل نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المملكة حيث يقوم المسلمون بأداء فريضة الحج، فيخرجون في قافلة صوب الشرق، ويتكسبون في الطرقات، ويقوم البعض بالتدريس خلال السفر كما يقوم بالتعلُم إذا صادف من هو أعلم منه في الطريق، وكان أمثال أولئك إذا مر بالأزهر ينتهز الفرصة واستمعوا إلى مشايخه[٢٠].

كانت مملكة برنو منذ القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر من أكبر مراكز العلم والثقافة العربية في السودان الغربي، وقد أنجبت عدة علماء أجلاء تفخر بهم المملكة، ومعظمهم تلقوا علومهم من الأزهر الشريف كالعلامة سليمان الباغرمي، والشيخ محمد الطاهر بن إبراهيم، والشيخ محمد الأمين الكانمي[٢١].

والأمين الكانمي هو الإمام الجليل المجتهد المجدد المجاهد العابد الناسك أمير المؤمنين وحامي الملة والدين الشيخ محمد الأمين الكانمي بن الشيخ طلبة على بن الإمام حمد و(أحمد) بن غرغرتمه أمسامي ولد عام ١١٨٩هـ بمدينة دال الشهيرة في بلاد كانم وتولى الملك ببلاد برنو عام ١٢٢٤هـ

---

[١٦] سورة آل عمران الأية ٩٧

[١٧] طنطاوي، محمد سيد (أ.د) الفقه الميسر ،دار السعادة للطباعة –القاهرة ط١ ص ٢٠٤(بتصرف).

[١٨]الأستاذ جبريل أبوبكر علي ، طرق القوافل واثرها في تقوية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها في جنوب الصحراء، مقال منشور في أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي تنقلات العلماء والكتب الذي أقيم أيام ٢٠–٢٣ ديسمبر ١٩٩٥ بطرابلس ص ٨٧ .

[١٩]الحسيني ، إبراهيم صالح (الشيخ) مرجع سبق ذكره، محاضرة ألقيت في مؤتمر الأسلام الذي انعقد في أبوجا من ٢٤–٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ ص ٢٩.

[٢٠]غلادنثي، شيحو أحمد سعيد (الدكتور) حركة اللغة العربية آدابها في نيجيريا، المكتبة الإفريقية ط٢ ص ٦٢(بتصرف).

[٢١] أبوبكر علي(الدكتور) الثقافة العربية في نيجيريا (١٨٥٠–١٩٦٠) ط١٩٨٢ ص ١٨٨ (بتصرف).

وهو ابن خمسة أو سته وثلاثين سنة، وأقام ملكا على بلاد برنو تسعا وعشرين سنة حتى توفي عام ١٢٥٣هـ.

والده محمد الكانمي المدني من مواطني فزان واشتهر بالعلم والمعرفة وخاصة علوم الحديث، ويدعى شيخ ننقكا ووالدته من عرب طرابلس، وقد سبق له أن قرأ القرآن في عاصمة غسرغمو، وحج مع والده الذي توفي بالمدينة المنورة[٢٢]

كان الأمين الكانمي من أهل الله المتجردين ومن أكابر أهل حضرته العرفين مالكي المذهب أشعري العقيدة جنيدي الطريقة، حيث اتصل بالجنيدية في رحلته على بلاد المشرق قبل اتصاله بالشؤون السياسية، ولقد عاصر عددا من أئمة العلماء من المحدثين والفقهاء، كالإمام الدردير والصعيدي والحفني والحافظ مرتضى الزبيدي وعرفه الدسوقي والإمام العلامة أحمد زروق الكبير، ولقي أهل العلم في الحجاز والشام ومصر والمغرب[٢٣].

درس الشيخ الأمين الكانمي في كل من المدينة المنورة والأزهر الشريف وفاس قبل، وكان عالما متفننا من غير شك أكسبه عددا كبيرا من الطلبة، وقد كان نفوذه في مملكة برنو لا يقل عن نفوذ الشيخ عثمان في بلاد الهوسا[٢٤].

ويمتاز أسلوب الشيخ الأمين الكانمي عن أسلوب الشيخ عثمان باللين والرفق والسير في القضايا سيرة الفقهاء، بينما يسير في هذه القضايا الشيخ عثمان سير المجتهدين أو المحدثين، فيكثر من الاستدلال بالأيات والأحاديث والحكم المأثورة عن رجال التصوف، ويبدو أن هذا الأسلوب لم يرض الشيخ الأمين، إذ حمل على الشيخ عثمان وانتقده نقدا لاذعا ورماه بأنه ممن يخالف فعله قوله، وأنه ممن يميلون الآيات والأحاديث كما يريدون لا كما يريد الشارع[٢٥].

ومن أهم الميادين التي استخدمها علماء برنو في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية الأشعارالتعليمية.

فنجد مثلا أن للشيخ الأمين الكانمي قصيدة تتكون من ثلاثة وأربعين بيتا قالها في نصيحة الحكام[٢٦] ومطلعها:

بسم الإلـــه ابتدئ النظاما ومنه أرجوا الــعون والتماما

الحمــد لله الشديد الحــول ثم صـــلاتــه على الرسول

محمـــد وآله والصـــحب وتابع مـــن عجم والعرب

وبعد أنا قاصـــــد بنظم نصيحة الحكام أهل الفهم

ومناسبتها عندما جاء الأمين الكانمي لبلاد برنو وجد فيها بعص المعاملات التي لا تتفق مع مذهب الإمام مالك فلم يوافق عليها، وكانت المحاكم كلها تأخذ بتلك المعاملات المخالفة الآتية الذكر[٢٧]:

---

[٢٢] الحسيني، إبراهيم صالح الإسلام وحياة العرب مرجع سبق ذكره ص ١١٧.

[٢٣] الحسيني، إبراهيم صالح: الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من الآثار والأخبار(القسم الثالث) مخطوط كتب بالألة الكاتبة ص ٤٠٩-٤١٠ (بتصرف).

[٢٤] أبوبكر علي(الدكتور) الثقافة العربية في نيجيريا (مرجع سبق ذكره) ص ١٨٩.

[٢٥] الاستذكار (مرجع سبق ذكر) ص ٤٦٤.

[٢٦] حصل الباحث على نسخة في مكتبة شطيمة محمود وتحمل الرقم برنو ٤٤ .

أولى المخالفات: إجبار الزوج على طلاق زوجته عند نشوزها دون الزامها الطاعة

من ذاك إيقاع الطلاق جبـرا إن زوجت دعت إليه نكـــرا
من غير ضر لا ولا من عدم منفقة ككســـوة ومطعـــم
بل تدعي كراهـــة منها فـقط فيحكمون طوعـــها وذا غلط
إذا الطلاق بالنشـــــوز باب بينه الحديـــث والكتـــاب
إن كان من زوج عليه طلقت ومنهما كـــذا وقيل خولفت

ثانيها: وجد أن المحاكم تؤيد رأي الجهال نفيهم الحاق من ولد لا أقل من تسعة أشهر بدون لعان، فحذر الشيخ من ذلك وأثبت أن المولود لستة أشهرفما فوقها لاحق بصاحب الفراش

ومنه أيضا نفيهم مِن والدا لـدون تسعة كمالا وعددا
إلا إذا نفـــاه باللعـــــان فأمـر ذاك واضـح البيان

ثالثها: وجد أن المحاكم لا تهتم بفسخ نكاح العاقد على من زُنى بها بلا استبراء ووقع العقد زمن الاستبراء، فأشار في منظومته بقوله:

ومن زنا الثيبَ بعـــد نكحا فالفسخُ لازم لـــه لن يبرحا
إن زمن استبرائها العقد وقع لكونه الفاسد والضد جمع
لكـن عليه أبدا لا تحـــرم وما ســواه حلها لا يُعلـم
تنبهـوا حكامنا وفرقـــــوا ما بين ذا وذلكـم لترتقـوا

رابعها: وجد أن الحكام يحكمون بالتحريم المؤبد في مسألة من خُطِبت في العدة أو عوهدت، وهي تحت زوج، فوجههم رحمه الله إلى أن هذا الفعل لا يؤيد لاختلاف العلماء فيه، فقد جاء فيه ثلاثة أقوال وأصحها عدم الفسخ مطلقا (قبل البناء أو بعده) وقول بالفسخ مطلقا بعد البناء وقبله، والثالث الفسخ قبل البناء ويمضي بعده وأشار بقوله:

ومثل ذا تحريمهم من خُطبت في عدة أو تحت زوج عوهدت
فاعل زين أمره مستقبـــــح وحكمـــه في بابه موضـــــح
فيـــه أتت ثلاثـــة أقـوال أصحها لا يفسخن بحـــــال
والفسخ قيل لازم قبل البنـاء وقيـــــل مطلقا وهـــذا وٌهِنَا

خامسها: قضية الاعتراض وهو قيام مانع الوطء بالرجل، وذلك بعدم انتشار الذكر وقيامه لعرض كسحر أو خوف أو مرض، ووجد أن الحكام إذا ادعت المرأة على زوجها الاعتراض، واعترض الزوج هذه الدعوى، فلا يصدقونه بل يكذبونه، وهذا خلاف السنة، فيلزمون الزوج الاختلاء بزوجته في مكان بحيث يسمعه الناس من خارج المكان ولا يُستبعد أن يُرى من خلال الساتر الخفيف، وإلى هذا أشار في قوله:

كذاك مـــــن جملة بهذا البدع فاسمع أخي نصيحتي واحفظ وعِ
ما يُفعل اليوم بـــــذي الأراضِ من حكمهم في أمـر الاعتراض

---

[٢٧] الحسيني، إبراهيمصالح:الاستذكار مرجع سبق ذكره ص ٤٩٢-٤٩٨

أن زوجـــة قالت به وأنكـــرا زوج مُعظِمـــا بما قـــد ذُكِرا
فعنـــد ذاك الوطء يُلزمـــونا بخلـــوة والـــناس ينظـرونا
من خلف ساتـــر فياللعجب من لعبهـم بالدين هذا اللـــعب
كيف أباحوا رؤيـــة العورات لا سيما في هذه الحـــالات
والاعتراض فيه قـول الـزوج مُصـدق كهي في داء الفـــرج

وختمها بقوله:

حمـــدت ربي آخر النظـــام وصلواته على التهـــــامي
محمـد وصحبـــــه والآل هم النجوم في دجـى الليـــالي
تم كتـــاب نصحة الحـــكام في نظم محمـد الأمين الفهـــام

فيتضح لنا من قصيدته هذه حرصه التام على القيام بالنصائح لأولي الأمر، ونجد أن القصيدة مليئة بالشواهد التي تبين لنا طول باعه في الفقه والحديث

الخاتمة

فرض الله تعالى الحج على كل من استطاع من المسلمين وذلك لِحِكم ومقاصد جليلة ولغايات شريفة، كتقوية الإيمان والتقوى في النفوس والتعارف والتأخي والتكافل والتواصل بين المسلمين وتبادل المنافع بينهم دينيا ودنيويا والتعاون على البر والتقوى، ومن المنافع أيضا المنافع العلمية التي وقف عليها أهل مملكة برنو آن ذاك حيث تعلموا في طريقهم للحج مارين بالسودان ومصر وغير ذلك.

ومن هؤلاء الحجاج اوردنا نموذجا لواحد من حجاج برنو ألا وهو الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي اهتم بالتعليم، ونظر نظرة فاحصة للأعمال القضائية آن ذاك، فقام بنصحهم وتنبيههم عما غفلوا عنه في أسلوب شعري جميل ملأه بالشواهد من الفقهاء والمحدثين عملا بقوله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان).

ثبت المراجع:

١. الحسيني، إبراهيم صالح:الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من الآثار والأخبار (القسم الثالث) مخطوط كتب بالألة الكاتبة

٢. الأبعاد التاريخية للإسلام في إفريقية والدعوة الإسلامية الطرح الجديد، محاضرة ألقيت في مؤتمر الاسلام الذي انعقد في أبوجا من ٢٤-٢٨ نوفمبر ١٩٨٩

٣. الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو، ١٩٧٩ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر القاهرة

٤. علي، جبريل أبوبكر (الأستاذ)، طرق القوافل وأثرها في تقوية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها في جنوب الصحراء، مقال منشور في أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي تنقلات العلماء والكتب الذي أقيم أيام ٢٠-٢٣ ديسمبر ١٩٩٥ بطرابلس

٥. أبوبكر علي(الدكتور) الثقافة العربية في نيجيريا (١٨٥٠-١٩٦٠) ط١٩٨٢

٦. غلادنثي، شيحو أحمد سعيد (الدكتور) حركة اللغة العربية آدابها في نيجيريا، المكتبة الإفريقية ط٢

٧. الشريف، كياري إبراهيم، البردة الجيمية في مدح خير البرية للإمام الخطيب الشيخ يوسف بن عيد القادر القرقري، بحث قدم لقسم اللغة العربية، كلية الآداب والدراسات الإسلامية جامعة بايروكنو للحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية والأدب

٨. طنطاوي، محمد سيد (الأستاذ الدكتور) الفقه الميسر، دار السعادة للطباعة -القاهرة ط١

٩. بفه، محمد الثالث،الشعر الصوفي للشيخ أحمد أبى الفتح اليرواوي من عام ١٩٤٢-١٩٩٢م، بحث تكميلي لنيل شهادة الماجيستير في اللغة العربية بجامعة ميدغري

١٠. ابن شريفة، محمد، إبراهيمالكانمي: أنموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المعرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط

١١. موسى، يعقوب يونس المديح والتوسل في الشعر الصوفي(دراسة فنية لنماذج مختارة من علماء برنو في القرن العشرين) بحث تكميلي لنيل الدكتوراه في اللغة العربية وادابها مقدم لجامعة ميدغري ٢٠١٠